من الحياة العلمية فى مصر

٤ - تقى الدين السبكى

بقلم محمد طه الحاجرى

تتمة

ولقد خلفت له هذه الولايات متاعب غير قليلة ، وأثارت عليه دفائن من الحقد وسخائم القلوب ، فقد نقم عليه ولايته قضاء الشام قوم من أهلها كانوا يطمعون فيها ؛ وأخص هؤلاء أسرة جلال الدين القزوينى قاضى قضاة الشام من قبل ، وطبيعى أن يأخذ ذلك الحقد سبيله من السعاية والوشاية والتحريض عليه والتنفير منه ؛ ثم كانت ولايته لخطابة الجامع الأموى مما زاد الأمر ضغثاً على إبالة ؛ فقد كانت تلك الخطابة فى بيت القزوينى كذلك ، ويقول زين الدين عمر بن الوردى فى تاريخه : « لما توفى الخطيب بدر الدين محمد بن القاضى جلال الدين القزوينى خطيب دمشق تولى السبكى الخطابة ، وجرى بينه وبين تاج الدين عبد الرحيم أخى الخطيب المتوفى وقائع ، وفى آخر الأمر تعصبت الدماشقة مع تاج الدين ، فاستمر خطيبا » . وكذلك أغضبت ولايته مشيخة دار الحديث الأشرفية قوما من أهل الشام كانوا يرشحون لها شمس الدين بن النقيب ، ولقد سيقت اليه هذه الولاية وهو كاره ، إذ كان قد رأى أن الذهبى هو الأحق بها ، وقد عينته لها ، لولا سلطان الشهوات كما سترى ذلك

هذا وجه من وجوه الحالة فى الشام ، وقبيل مما كان يسبب له المتاعب والآلام ؛ وهناك وجه آخر يتعلق بما أشرنا اليه من قبل عما أوجده مذهب ابن تيمية من تفريق وخروج على المذهب الرسمى السائد

وقد رأينا أن اختياره كان منظورا فيه إلى تلك الحالة من السلطان ، ونقول الآن إن القوم فى دمشق كانوا يرون فيه ذلك أيضا ، وكانوا يأملون أن يخلصهم من آثار « الحنابلة » وما أثاره زعيمهم القوى الجديد ؛ ولعل المطامع الشخصية حسبت فى ذلك سلما يمكن أن ترتقيه وتصل به إلى أغراضها فى مظهر دينى سابغ ؛ ولكن تقى الدين كان أحكم من أن ينخدع بمثل هذا ، كما كان أكبر من أن يخلط فى تقدير الأمور ؛ فأغضب الطامعين ولم يرض جماعة المتشددين المتكلفين

وهنا يحسن بنا أن ننقل نص ما حكاه التاج السبكى عن أبيه فى أثناء ترجمته للحافظ أبى الحجاج المزى ، ففيه صورة دقيقة حية لما نحن بصدده ، قال :

« . . . . وحكى لى ، فيما يحكيه من تسكين فتن أهل الشام ، أنه عقب دخوله دمشق بليلة واحدة حضر اليه الشيخ صدر الدين سليمان بن عبد الحكم المالكى — وكان الشيخ الامام يحبه — قال دخل الى وقت العشاء الآخرة ، وقال أمورا يريد بها تعريفى بأهل دمشق ، قال : فذكر لى البرزالى وملازمته لى ، ثم انتهى الى المزى فقال : وينبغى لك عزله من مدرسة دار الحديث الأشرفية ، قال الشيخ الامام : فاقشعر جلدى ، وغاب فكرى ، وقلت فى نفسى : هذا امام المحدثين ! والله لو عاش الدارقطنى لاستحيا أن يدرس مكانه ! قال : وسكت ، ثم منعت الناس من الدخول على ليلا ، فقلت هذه بلدة كثيرة الفتن ؛ فقلت أنا للشيخ الامام : إن صدر الدين المالكى لا ينكر رتبة المزى فى الحديث ، ولكن كأنه لاحظ ما هو شرط واقفها من أن شيخها لا بد أن يكون أشعرى العقيدة ، والمزى وإن كان حين ولى كتب بخطه أنه أشعرى ، إلا أن الناس لا يصدقونه فى ذلك فقال : أعرف أن هذا هو الذى لاحظه صدر الدين ، ولكن من ذا الذى يتجاسر أن يقول : المزى لا يصلح لدار الحديث ؟ والله ركنى ! ما يحتمل هذا الكلام !

الحجاز حسب ما هو مشاهد وملموس هو بلا شك تأثر صحيح ومعقول ، وهو المأمول أيضاً لبلاد لها ماض أدبى حافل

وأدباؤنا يشعرون ويتأثرون بعوامل الحياة الفكرية ويجيدون التصرف فى فنون القول ويبدعون فى سبك العبارات ووضعها فى قالب من الحكمة والذوق ليحوزوا قصب السبق فى معترك الحياة الأدبية وليرفعوا اسم بلادهم عالياً ، وهذا مايرجوه ويناصره كل أديب حجازى وهب موهبة الاحساس والشعور بالحياة وفرائضها — وليس ولله الحمد ثمة ركود ولا فتور فى النفوس والأفكار

(مكة) عبد المجيد شبكشى

فأنت ترى أن أول ما ووجه به السبكي فى الشام هو الانكار على البرزالى والمزى وأضرابهما ، ممن يتهمون بالميل مع ابن تيمية وأن أول ما تقدم به اليه فقهاؤها هو « اعلان الحرب » على هؤلاء ، وموقف السبكي من هذا موقف نبيل مجيد ، فقد رأى الأمر فتنة لا ينبغى أن يفتتن فيها مع المفتونين ، فركن الى دينه وضميره ، وترك بنيات السبل ، ولم يعبأ بهذه الصغائر وما تنطوى عليه من انذار وتهديد ، ولبث مصاحبا للبرزالى ملازما له ، الى أن خرج إلى الحج وقضى نحبه ، ثم ما فتئ يذكره ويثنى عليه أطيب الثناء ، وأقر المزى فى مكانه بدار الحديث الى أن مات سنة ٧٤٢ هـ ، وكان يكبره غاية الإكبار ، ويحث ابنه على ملازمته والانتفاع به ، لا يصرفه عن ذلك تقولات المتقولين ولا ازورار المزورين

ولما مات المزى كان ثمت مظهر آخر من مظاهر هذه الفتنة فى تعيين خلف له ، فقد كان الذهبي هو وحده البقية الباقية من رجال الحديث الجديرين بتولى مشيخة « دار الحديث » ولـكنه كان متهماً بمشايعة الحنابلة شيعة ابن تيمية ، فمال عنه القوم لذلك ، ورشحوا شمس الدين بن النقيب ، ودعوا له ولجوا فى الدعوة . أما السبكي ـ واليه حق التعيين ـ فلم يغلبه الهوى على الحق ، ولم تأخذه فى سبيل العلم عصبية ، ولم يبال بصياح الصائحين ، فعين الذهبي فى ذلك المنصب . وهنا اشتدت ثورة القوم وعلا صخبهم ، وهو مصر على رأيه حتى لم يبق بد من حضور نائب الشام وكان فى ذلك الحين « الطنبغا » ، فلم يستطع التوفيق . وأخيراً رأى شيخ الحنفية أن تحل الأزمة بأن يتولى المشيخة السبكي نفسه ، ووافق الأمير على هذا الرأى وهو يقول : « أعلم الناس بهذا العلم الذهبي وقاضي القضاة ، وقاضى القضاة أشعرى قطعا ، وقطع الشك باليقين أولى . » وانتهى الأمر على ذلك بعد أن كاد يفضى الى فتنة لا يعرف مداها

فموقف السبكي هذا من شيعة ابن تيمية وإغضائه عن العصبية المذهبية هذا الاغضاء وعدم مسايرته الأشاعرة فى كل ما يشتهون أفسح المجال أمام المتخرصين ، ومكن الحقد من أن يجد سبيله معبدا بين جمهور الناس وفى مجالس الخاصة ، ولا سيما فى مجالس الأمير نائب دمشق ، ففسدت الصلات بين الشيخ وبين أغلب الذين تولوا نيابة الشام ، وكثيراً ما قامت الحرب بينه وبينهم ، وما كان يطمئنها إلا ما كان ولاة ذلك العهد معرضين له من العز[ل] الوشيك أو القتل المفاجئ

على أن السبب الأول فى توتر العلائق بينه وبين النوا[ب] يرجع ـ فى حقيقة الأمر ـ الى صلابته فى الحق ، وصرام[ته] فى تقريره ، وتقديره لقدر منصبه ، واعتباره إياه حرماً لا ينب[غى] لأحد أن يتطاول اليه أو ينال منه ؛ فهو الحفيظ على الحق الذ[ى] جاء الشرع ببيانه ؛ فكل تفريط فيه ، أو تعريض له ، أو ملاي[نة] فى تنفيذه فانما مردها إلى هذا الشرع الذى يقمصه ، وحاشاه

وكان الولاة من ناحية أخرى ، قوماً عجما ، أدعياء فى الدين لا يتعدى إيمانهم مظاهرهم ، ولا يعرفون الحق إلا أمراً ينفذ وشهوة تقضى ، وعتواً واستكباراً فى الأرض ، إلا قليلاً منهم ثم كان يزيد اضطراماً ما كان يلقيه فيها من السعايات والنمائم م[ن] كانوا يداخلونهم من أهل الشام ، ومنهم بعض العلماء مثل شهاب الدين العمرى الذى كان يقع فيه فى مجلس الأمير ايدغمش [(١)]

ومما يدل على دسائس القوم عند الولاة أن أحد هؤلاء الأمراء واسمه فيما يورده صاحب الطبقات (طقزه تمر) (٢) كان فيما يقو[ل] من أصحب الناس له فى مصر ، فلما جاء إلى الشام غيّره عل[يه] الشاميون ، وأغاظوه عليه امتناعه من امتثال أوامره

ولقد هم السبكي مرة أن يستقيل من منصبه ، وكان ذلك ف[ى] ولاية ايدغمش سنة ٧٤٢ (٣) ، وكان قد بلغ فى معاندته وإيذا[ئه] مبلغا كبيرا . ولـكنه يظهر أنه رأى فى هذه الاستقالة تحقيق[اً] لشهوته ، وتخليا عن واجبه ، فعدل عنها واستمر فى مجاهدته وأراد ايدغمش أن يتخلص منه ، وأن يلتجئ الى دعوى الدين ف[ى] محاربته ، فجمع الفقهاء للفتوى عليه — وما كانت تعوز[ه] مقدمات الافتاء — وكاد الأمر يتم للنائب لولا أن جاء قاصد ما الى الشيخ يطلبه الى باب السلطان فى أمر من الأمور ، فذهب الى مصر ، وهناك أوجد أزمة غير هينة الحل ؛ فقد أصر على

(١) الأمير علاء الدين ايدغمش الناصرى ، وقد كتب المقريزى ترجمة لحياته عند كلامه عن خوخة إيدغمش (ج٢ — ص٣٥ — ط بولاق)

(٢) هكذا يقرأ اسمه فى نسخة الطبقات المطبوعة ، ولعله طقز دمر كما يتردد كثيراً فى ابن إياس والمقريزى ، وتولى نيابة دمشق سنة ٧٤٥ ومات أول جمادى الآخرة سنة ٧٤٦

(٣) هكذا يحدد التاريخ التاج السبكي ، وفيه نظر ، فان مدة نيابة ايدغمش ، كانت كما يقول المقريزى : من ٢٠ صفر سنة ٧٤٣ إلى ٣ جمادى الآخرة من هذه السنة

لا يعود الى الشام وفيها ايدغمش ، ولبس من اليسير عزل نائب
ن أجل قاض مهما علت منزلته . ولكن القدر كان أسرع الى
ل هذا الأزمة وأقضى فيها من كل تدبير وقضاء ، فقد جاء الخبر
وت ايدغمش موت الفجاءة ، وعاد الشيخ الى دمشق يعيد
سيرة الحق المجاهد الظافر

وممن آذاه وأضجره نائب اسمه « أرغون شاه » ، تولى نيابة الشام سنة ٧٤٨ ، ويروى أن الشيخ كان يمسك بطرزه ويقول له : « يا أمير ! أنا أموت وأنت تموت ! » وتأمل أنت في هذا قوة الايمان والجرأة في الحق . وقد ظل ذلك الرجل في نيابة الشام سنتين ثم قتل

كان آخر هؤلاء النواب أرغون الكاملي [1] ، وكان رجلا فظا غليظ القلب . وقد حكى تاج الدين أن أباه « حكم مرة في واقعة جرت وصمم فيها ، وعانده أرغون الكاملي نائب الشام وكاد الأمر يطلخم شاما ومصر ، فقد ذكر القاضي صلاح الدين الصفدي أنه عبر اليه وقال : يا مولانا ! لقد أعذرت ، ووفيت ما عليك ؛ وهؤلاء مايعملون الحق ؛ فلم تلق بنفسك الى التهلكة وتماديهم ؟ فتأمل مليا ثم قال :

فليت الذي بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خراب

ويا عجبا لتلك الشيخوخة التي لاتزيدها الأيام إلا صلابة وقوة ، وذلك الايمان الذي لا تزيده مظاهر القوة إلا غلبة واستعلاء

وهكذا كانت حياة تقي الدين السبكي في الشام : ملجأ للحق يلوذ به ويعتصم ، ومثالا للخلق القوي الذي لا يتثلم ، وآية من آيات الله على قوة الروح الانسانية متى خلصت من الرعونات والنزوات فلا يغلبها غالب

ولقد كان الحنين الى الوطن يهز ذلك الشيخ هزا ، فذهب الى مصر ، وخلع عليه سلطانها ، ثم عاد منها الى دمشق سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م)

وفي ذي القعدة سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤) نال منه الضعف وأدركه المرض ؛ ولما اشتد عليه استخلف على قضاء الشام ابنه تاج الدين ، فتقلده . وكان في أثناء مرضه شديد اللهف على العودة الى وطنه عظيم الحرص على أن يدركه فيها أجله ؛ فسافر الى مصر

(١) هو الأمير سيف الدين تولى نيابة دمشق في ١١ شعبان سنة ٧٥٢ ولقد أورد المقريزي ترجمة لحياته بمناسبة كلامه عن دار أرغون (ج ٢ ص ٧٣ ط بولاق)

ولبث فيها أياما يكابد العلة ، حتى أدركته الوفاة ليلة الاثنين ٣ جمادى الآخرة سنة ٧٥٦ (١٠ سبتمبر سنة ١٣٥٤ م) وخلف ميراثا جليلا ضخما [1] مما صنفه في كثير من الفنون ، وميراثا آخر أجل وأضخم في ابنيه العلامتين : بهاء الدين وتاج الدين . ولعل الله يوفقنا لدراسة حياتيهما ، ورسم صورة لهما

كلية الآداب — محمد طه الحاجري

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب إنه « صنف نحو ١٥٠ كتابا مطولا ، ومختصر المختصر منها يشتمل على ما لا يوجد في غيره من تحرير وتدقيق وفائدة واستنباط »

لجنة التأليف والترجمة والنشر

التصوير في الاسلام

عند الفرس

للدكتور زكي محمد حسن

أمين دار الآثار العربية

أتمت لجنة التأليف طبع هذا الكتاب ، وبه تصدير للمستشرق الكبير الأستاذ جاستون ڤييت ، ومقدمة بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

وفيه موجز لتاريخ إيران من الأزمنة القديمة حتى العصر الحاضر ؛ ثم فصل عن نشأة التصوير الفارسي وما يقال عن حظر الشريعة الاسلامية التصوير وعمل التماثيل ، ثم ستة فصول أخرى تبحث في تطور صناعة التصوير في إيران وفي المدارس الفنية المختلفة التي ازدهرت فيها : مدرسة بغداد أو مدرسة العراق ، المدرسة الفارسية التترية ، عصر تيمور وخلفائه ، بهزاد ومعاصروه — مدرسة بخارى ، المدرسة الصفوية ، عصر الشاه عباس وخلفائه وظهور التأثير الأوربي

والكتاب خلاصة ما وصلت إليه أبحاث علماء الآثار ومؤرخي الفنون الاسلامية في انجلترا وفرنسا وألمانيا ، ودراسات خاصة لما في دار الكتب المصرية وأهم المتاحف الأوربية من بدائع الصور الاسلامية

وبين صفحات الكتاب خمس وخمسون « لوحة » كبيرة مستقلة فيها سبعون رسما من أهم ما صور المسلمون

ويطلب من لجنة التأليف ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد